دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

التصوف المغربي في غرب إفريقيا
الامتداد والتأثير

د. طارق بوكطب

دكتوراه التاريخ المعاصر
كلية الآداب – سايس (فاس)
جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية

مُلَخّص

إن انتماء المغرب للقارة الأفريقية التي تعتبر الفضاء الطبيعي الذي يحدد هويته جغرافيا، مكنه من ربط علاقات منذ القدم مع دول إفريقيا جنوب الصحراء، التي مثلت ولازالت مجالاً مفتوحًا للتواصل الثقافي والاقتصادي بين المغرب وأقاليم السودان الغربي. فغنى علاقات المغرب بهذا الفضاء تتخذ أبعادًا متعددة يتداخل فيها التاريخي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ظلت قائمة إلى يومنا هذا. في هذا الإطار تشير المصادر التاريخية إلى أهمية المبادلات التجارية عبر الصحراء بين المغرب ودول جنوب الصحراء. إذ شكلت آلية أساسية في التبادل الثقافي وإغناء الرصيد الروحي بينهما، خصوصًا وأن العديد من الأسر الحاكمة في إفريقيا كانت لها علاقات وصلات وثيقة مع علماء وفقهاء المغرب ما مكنها من القيام بدور بالغ الأهمية في منطقة السودان الغربي. لقد استطاع المغرب بحكم السيادة الروحية التي يحظى بها لدى دول إفريقيا جنوب الصحراء الحفاظ على مدى قرون عديدة على روابط وثيقة امتدت إلى مناطق بعيدة نحو الجنوب عن حدوده الجغرافية والسياسية الحالية، وقد شكلت الزوايا والطرق الصوفية المغربية هوية متميزة بنفحات مغربية أصيلة في دول جنوب الصحراء، وهو ما يترجمه التوافد الكبير لمريدي فروع هذه الطرق الصوفية من أعماق إفريقيا إلى المغرب لإحياء المناسبات الدينية واستحضار هذا البعد الروحي للمغرب لدى بلدانهم، بل أكثر من ذلك نجد أن التصوف المغربي قد شكل الحجر الأساس في توطيد المرجعية الدينية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء من خلال التضييق على المسيحية وخلق التوازن الروحي والسياسي بالإضافة إلى الدور الذي لعبه في سبيل دعم وتكريس حوار الثقافات والحضارات والإسهام في بناء مجتمعات فاضلة تعيش في سلام ومحبة وتواصل إيجابي بدل الركون إلى قيم الصراع والعنف والكراهية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٩ يناير ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٢١ فبراير ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

التصوف المغربي؛ بلاد السودان الغربي؛ المذهب المالكي؛ الطرق الصوفية؛ القارة الأفريقية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.262099

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

طارق بوكطب, "التصوف المغربي في غرب إفريقيا: الامتداد والتأثير".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ٨٤ – ٩٥.

Corresponding author: sciencehistoire@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخْية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقدِّمَةُ

تتأسس العلاقات الدولية على مجموعة من المحددات، أجملها المؤرخون والسياسيون في المحددات الطبيعية والبشرية، ثم الاقتصادية والثقافية والدينية. ولم يستثن المغرب من هذه المحددات في سياسته وعلاقاته الدولية بصفة عامة والأفريقية بصفة خاصة. وإذا كان المحدد الطبيعي المتمثل في الموقع استراتيجي للمغرب بشمال إفريقيا على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط قد مكنه من الانفتاح على الدول الأوروبية وربط علاقات اقتصادية وسياسية متجذرة في التاريخ، فإن علاقاته مع بلدان إفريقيا جنوب الصحراء قد تحكم فيها المحدد الديني بشكل متميز. إذ ظل المغرب منذ العصور الوسطى بمثابته أرض للارتواء الروحي بالنسبة للعديد من شعوب لإفريقيا جنوب الصحراء، فتمكن من تصدير نموذج ديني يؤلف بين المذهب السني المالكي والعقيدة الأشعرية وطريقة الجنيد والتجربة الصوفية، وبذلك غدا دوره وحضوره في إفريقيا مرتبطًا بالجانب الديني أكثر من غيره، وهو المجال الذي تميز به عن بلدان شمال إفريقيا وباقي الدول العربية الإسلامية.

إن انتماء المغرب للقارة الإفريقية، الفضاء الطبيعي الذي يحدد هويته جغرافيا، مكنه من نسج علاقات متجذرة في التاريخ مع بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، ورغم اتساع مجال الصحراء فإنه لم يشكل عائقا بقدر ما مثل جسرًا مفتوحًا للتواصل بين المغرب وأقاليم السودان الغربي، لتتخذ بذلك علاقات المغرب بهذا الفضاء أبعادًا متعددة يتداخل فيها التاريخي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ولنا في الدستور المغربي أكبر تأكيد على ذلك، حيث اعتبار انتماء المغرب الإفريقي أحد أهم ركائز الهوية المغربية.

تجمع المصادر التاريخية على أن علاقات المغرب بغرب إفريقيا، تعود إلى فترة المرابطين، فقد شكلت المبادلات التجارية عبر الصحراء آلية أساسية في تحديد نوع تلك العلاقة التي كانت قائمة على أساس اقتصادي، واستمرت هذه الروابط مع الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، لتشهد تطورًا مهما إبان الحكم السعدي، خصوصًا في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي الذي تمكن من فتح بلاد السودان سنة ١٥٨٥م، وأرسى دعائم دولة تمتد إلى تخوم نهر السنيغال. كما حظي السلطان السعدي بمبايعة الكثير من ملوك وأمراء هذه المناطق، وذلك مقابل إرسال مساعدات عسكرية من أجل نصرة الإسلام والمسلمين ونشره في المناطق المجاورة. كما ساهم في توطيد العلاقات خلال هذه الفترة تطور المبادلات التجارية عبر الصحراء، حيث شكلت آلية أساسية في التبادل الثقافي بين ضفتين تفصلهما فيافي وقفار تمتد من الشرق إلى الغرب. فتم بذلك إغناء الرصيد الروحي بينهما، خصوصًا وأن العديد من الأسر الحاكمة في إفريقيا الغربية كانت لها علاقات وصلات وثيقة مع علماء وفقهاء المغرب، مما مكنها من القيام بدور بالغ الأهمية في المنطقة.

ورغم فتور العلاقات مع وصول طلائع المستكشفين الأوروبيين إلى الساحل الغربي لإفريقيا، وتراجع الحضور المغربي في هذه الأصقاع اقتصاديًا وسياسيًا، وفقدانه لدور الوساطة الاقتصادية بشكل لم يعد معه المغرب في بداية القرن التاسع عشر قادرًا على مواجهة القوة العسكرية الأوروبية، فإن العلاقات الدينية والروحية بشكل خاص ظلت مستمرة أمام الحملات التبشيرية التي قادتها المسيحية، واستمر المغرب في تقوية حضوره بإفريقيا بصفة عامة ودول غربها بصفة خاصة.

أولاً: أهم الطرق الصوفية المغربية التي انتشرت بالسودان الغربي

شكلت الزوايا والرابطات والمدارس والمساجد التي أنشأت عبر بلدان السودان الغربي، فضاءات مناسبة لانتشار التصوف وتطوره. فخلال القرنين الخامس والسادس عشر الميلاديين، عرفت الزاوية الكنتية القادرية انتشارًا واسعًا ببلاد السودان، وأيضًا الزاوية البكائية التي أنشأها سيدي أحمد بن موسى المتوفي (٩٢١هـ/ ١٥٢٣م)[1]. كما كان للزاوية العيساوية المنتسبة لسيدي محمد بت عيسى المهدي السملالي الذي أخذ عن الشاذلية، حظها في الانتشار عن طريق مريديها في بلاد السودان. وتعدّ الزاوية المصلوحية التي أسسها

سيدي عبد الله بن حسين (ت. ٩٧٧ هـ/ ١٥٦٩م)[٢]، أيضًا من الزوايا التي لاقت انتشارا واسعا بتلك البلاد. وبالمثل، عرفت الزاوية الجزولية التي أنشأها سيدي أحمد بن موسى (ت. ٩٧١ه/ ١٥٦٣م)[٣] إقبالاً كبيرًا من طرف المريدين السودانيين، إذ تشبعوا بالفكر الصوفي المغربي، فكان منهم العلماء والزهاد والمتصوفة.

وبذلك، تمكن التصوف المغربي من التغلغل بشكل سلس في مجتمعات السودان الغربي نظرا لخصوصيته المتمثلة في الوسطية والاعتدال، وقبول الاختلاف، والتعايش، والتسامح. ويمكن لأي متتبع أن يلحظ تأثير التصوف المغربي داخل بلاد السودان على مختلف مناحي الحياة، حيث ظهر عدد من الزوايا كان لها دورًا بارزًا في خدمة الدين والمجتمع. حيث بلغ هذا التأثير مداه لدرجة ارتبط فيها السودانيون بشكل وثيق بالزوايا داخل المغرب من خلال تبادل الزيارات الروحية والعلمية، التي ظلت قائمة إلى يومنا هذا. ولنا في ضريح الشيخ سيدي احمد التجاني دفين فاس، مثالاً على عمق الارتباط الروحي بين المريدين السودانيين وأشياخهم بالمغرب.

والأكيد أن تأسيس عدة طرق صوفية ذات الأصل المغربي ببلاد السودان يترجم مدى عمق هذه العلاقات ومتانتها، ولعل أبرزها الطريقة القادرية التي تعتبر من أهم الطرق الصوفية التي انتشرت ببلاد السودان الغربي، وكان لها تأثير فكري و اجتماعي و سياسي، و"القادرية منسوبة إلى مؤسسها سيدي عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة (٥٦١هـ/ ١١٦٧م)، وقد انتقلت الطريقة إلى المغرب عن طريق أبي مدين شعيب الأنصاري الأندلسي، وأخذها عنه عبد السلام بن مشيش الذي انتشرت على يده، وكان من مريدي الطريقة الشيخ أبي يعزى الذي أخذ عن الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني".[٤]

عرفت انتشارًا واسعًا بفضل الشيخ عبد الكريم المغيلي (ت ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م)[٥]، ومن بعده الشيخ سيدي عمر بن الشيخ سيد أحمد البكاي الكنتي (ت ٩٥٩هـ/ ١٥٢٢م)[٦]، الذي يعد مؤسس الطريقة في السودان الغربي. وتنقسم القادرية في السودان الغربي إلى طائفتين كبرتين هما: الطريقة البكائية وهي منسوبة إلى أحمد البكاي الكنتي ولها عدد كبير من المنتسبين خاصة العلماء بمختلف بلاد السودان الغربي، ثم الطريقة الفاضلية التي أسسها الشيخ محمد فاضل بن مامين القلقمي، الذي ساهم بشكل وافر في انتشار هذه الطريقة في بلاد السودان، خصوصا بعد أن قام ببعث أبنائه العلماء الثلاثة متفرقين في نواحي البلاد؛ الشيخ سعد بوه في الترارزة، والشيخ ماء العنين في آدرار، وسيد الخير بمنطقة الحوض. وبطبيعة الحال ساعد ذلك على توطين الطريقة الفاضلية بالسودان، وذلك من خلال تخريج العديد من الفقهاء والمتصوفة الذين تتلمذوا على يد أبناء محمد فاضل بن مامين، مثل الشيخ المجتبى بن خطري البصادي، والشيخ أحمد أبو المعالي التقاطي والشيخ التراد بن الشيخ الحضرمي، هذا الخير الذي اخذ عنه الشيخ محمد عبد الله بن اده البصادي.[٧] أيضًا، عرفت بلاد السودان الغربي انتشار الطريقة الشاذلية خصوصًا منذ القرن العاشر الهجري، ويرجع الفضل في ذلك إلى أحمد زروق (ت. ٩٦٣ه)، ومحمد ناصر الدرعي (ت. ١٠٣٦ه)، وهما من الشيوخ المغاربة الذين بصموا التصوف المغربي وحققوا شهرة كبيرة داخل المغرب وخارجه. ويعد هذا الأخير سند الطريقة الأغظفية التي لاقت انتشارًا واسعًا بالسودان، وهي إحدى فروع الطريقة الشاذلية إلى جانب الطريقة المتالية[٨]. وفي هذا الصدد، تردد كثير من الشيوخ المغاربة المنتسبين لهذه الطريقة على بلاد السودان، فساهموا في التعريف بها وكسب مزيد من الاتباع والمريدين، ومنهم على سبيل المثال الشيخ سيد إبراهيم البصيري المغربي الذي طال به المقام بأرض السودان وكان من الشيوخ البارزين.

وبالمقابل، ذاع صيت الطريقة التيجانية، حتى "طفق إشعاعها ينتشر في شتى الأرجاء، وقد كان نصيب المناطق الواقعة جنوب الصحراء حظا موفورا، فرجال مثل الشيخ محمد الحافظ الشنقيطي والأخويين السالك وأحمد سالم وعثمان الفلاني والشيخ سيدي محمد الأخضر وغيرهم كثير قد نشروا الطريقة التيجانية في أرض البيضان والسودان الغربي".[٩] وفي هذا السياق، تشير مجموعة من "المصادر التيجانية وغير التيجانية، خصوصا منها المكتوبة باللغة الفرنسية على أن محمد

الحافظ العلوي الشنقيطي هو أول مَنْ نقل تعاليم الطريقة التيجانية إلى الصحراء وبلاد شنقيط".[١٠] وقد كانت حياته مليئة بالتجارب، والتنقل من أجل العلم، حيث أخذ العلم عن كثير من الشيوخ، "ولما وصل المغرب وبالتحديد مدينة فاس أخذ مباشرة ورد الطريقة التيجانية عن شيخ الطريقة احمد التيجاني"[١١]، وقام بنشرها في غرب إفريقيا عبر موريتانيا.

والأكيد أن هذه الطريقة قد استطاعت أن تنشئ عدة فروع لها ببلاد السودان الغربي، ولعل أهمها فرع التيجانية الحموية نسبة إلى الشيخ أحمد بن محمد بن سيدنا عمر الشهير بـ" (حماه الله الشريف التيشيتي)، الذي كان من أهم المتصوفة المقاومين للاستعمار في غرب إفريقيا ولقبه المصادر الفرنسية بـ "شريف انيورو".[١٢] ولم تكن التيجانية الحافظية نسبة إلى الشيخ محمد الحافظ العلوي أقل شأنا منها، إذ انتشرت هي الأخرى انتشارا واسعا في السودان الغربي. وكان من أشهر مشايخها المعاصرين الشيخ ابراهيم انياس الكولخي، الذي ساهم بشكل وافر في ازدهارها وانتشارها في مناطق مختلفة من بلاد السودان الغربي، حيث "طبعها بطابع تميزت به عن باقي الفروع الأخرى، ذلك الطابع الذي تجسد في الفيضة التيجانية".[١٣] ومع قيام الدولة العمرية الفوتية- نسبة إلى الشيخ عمر الفوتي (١٧٩٤م – ١٨٦٤م) الذي قام بدور حيوي دينيا وثقافيا وسياسيا في تاريخ غرب إفريقيا، "حظيت تلك الطريقة برعاية ودعم قوي من قبل تلك الدولة في غرب إفريقيا".[١٤]

وبطبيعة الحال، ساهمت مجموعة من العوامل في انتشار الطريقة التيجانية، ولعل أبرزها الدعم الذي منحه المولى سليمان إياها ولشيخها، إضافة إلى أسباب أخرى يمكن إجمالها في:

- المكانة العلمية لشيخ الطريقة التيجانية التي وصل صداها إلى جنوب الصحراء.
- تفاني صفوة من الأصحاب في خدمة الطريقة وشيخها، فاعتمد عليهم الشيخ منذ البداية، فرحبوا بدعوته ودخلوا في طريقته وصاروا من خاصة خاصته، وبفضلهم انتشرت تعاليم مذهبه بمدينة فاس وخارجها، مستفيدين من كافة أوجه الدعم المقدمة.
- شبكة من المقدمين مدعومة بفئة من التجار ساعدوا بشكل كبير في نشر الطريقة التيجانية في السودان الغربي.
- ترحيب نخبة من العلماء ذوو الثقافة العالية بالطريقة التيجانية، إذ لم يجدوا مبتغاهم في الطرق المنتشرة آنذاك (فالطريقة التيجانية لم تكن أول الطرق التي دخلت السودان الغربي، بل سبقتها الشاذلية والقادرية)، وهو ما سيجعل هؤلاء العلماء يستقبلون الطريقة التيجانية بنوع من الحفاوة.
- انفتاح هذه الطريقة على شريحة من النساء وعلى فئات من المجتمع كانت مهمشة.
- ظهرت الطريقة التيجانية في جو من عدم الاستقرار الذي عرفه مجتمع السودان الغربي، وضرورة تجاوز طرق لم تستطع تغيير ذلك [١٥].

لقد حرصت الزوايا على استمرار العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان من خلال اتخاذها لمجموعة من الإجراءات الكفيلة بتذليل الصعاب وتجاوز الأخطار التي واجهتها القوافل التجارية، وذلك تسهيلاً لعملية العبور وتشجيعا لهذا النشاط بين المغرب وبلاد السودان الغربي، وهو الدور الذي برزت من خلاله الطريقة التيجانية، حيث "كان لها حضور فاعل في هذه العلاقات التجارية، وقد شجع المولى سليمان جميع الأنشطة التجارية التي كانت تقوم بها في اتجاه إفريقيا الغربية"[١٦]. كما ساهمت الزاوية التيجانية في إضافة لبنات جديدة في صرح الصلات والروابط التي جمعت بين المغرب وبلاد السودان، واستطاعت أن تبلغ الأوج برفعها لواء الجهاد سنة ١٨٤٨م، واستمر نشاطها الجهادي إلى أن اصطدمت بالفرنسيين الذين تمكنوا من القضاء عليها سنة ١٨٩٤م. وبذلك ساهمت في نشر الثقافة والحضارة العربية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء، وشكلت صلة وصل بين مسلمي الشمال والجنوب من خلال تبادل الزيارات والآراء والأفكار. كما "عملت على الوقوف أمام التيارات الأوروبية والحركات التنصيرية.[١٧]" وكيف لا وهي التي صادفت بداية الاحتلال الأوروبي لبلاد إفريقيا، فاضطر مريدوها إلى مقاومته دفاعا عن الدين والوطن والنفس والعرض.

إلى جانب هذه الطرق الصوفية التي كان امتدادها كبيرًا ببلاد السودان الغربي، ظهرت طرق أخرى لم تكن أقل أهمية، رغم أن انتشارها لم يكن بشكل كبير" لكن أدائها كان جيدا بشكل عام كالطريقة الصديقية والخضرية وهي طرق تتصل بالسابقة".[١٨] ومن الطرق أيضًا التي انتشرت في بلاد السودان الغربي، وحظيت باهتمام السودانيين وساهمت في ترسيخ الروابط الدينية والفقه المالكي، منها الطريق السنوسية التي يرجع سندها إلى الشيخ عبد العزيز الدباغ[١٩]، الذي أسس الزاوية المحمدية القادرية بمدينة فاس في نهاية القرن الثامن عشر.

تأسست الطريقة السنوسية على يد الشيخ محمد بن علي السنوسي، وارتبطت بالتصوف المغربي من خلال اتجاهين ، القادرية والشاذلية،[٢٠] كما أخذ شيخها وردًا عن مؤسس الطريقة التيجانية عندما التقى به في الديار المقدسة، وانتشر تأثير الطريقة السنوسية بجميع إفريقيا الغربية، وتركيا، والعربية السعودية، وقد اتسع نفوذها على أيدي دعاة يفيدون من طرابلس وتوات على تلك البلاد.[٢١] وتعتبر الطريقة السنوسية من الحركات الإصلاحية التي اعتمدت التصوف، كطريقة من طرق الإصلاح، وصلت إصلاحاتها حتى الكانم والبرنو ووداي وغيرها من المناطق التي كانت مسلمة، ومما يميز هذه الطريقة دعوة شيخها إلى ترك باب الاجتهاد مفتوحا، كما أنها من أكثر الطرق الصوفية تمسكًا بالسنة المحمدية، مما جعلها تنجح في انتشارها بالمجتمع السوداني.[٢٢]

ثانيًا: تجليات حضور التصوف المغربي ببلاد السودان الغربي

١/٢-دور المتصوفة المغاربة في الحركة العلمية وتوطيد المذهب المالكي بالسودان الغربي

ساهم العلماء والمتصوفة المغاربة في الحركة العلمية وحركة التصوف التي عرفتها بلاد السودان الغربي بامتياز، مستفيدين من القرب الجغرافي للسودان الغربي من المغرب، ومن الإرث التاريخي للصلات الثقافية التي جمعت بين ضفتي الصحراء، منذ وصول المرابطين الذين تاخمت مضاربهم الأولى للبلاد، وأدت حركتهم الإصلاحية مع مطلع القرن الخامس الهجري إلى انتشار الإسلام في السودان الغربي[٢٣]، إلى جانب هجرة العديد من العائلات المغربية إلى السودان الغربي، وتقلد عدد منها مناصب مهمة في المجتمع السوداني مما مكنها من نشر المذهب المالكي.

(١/٢) ١-إسهام المتصوفة المغاربة في مجال التعليم

ذاعت في السودان الغربي شهرة عدد من شيوخ، وعلماء، ومتصوفة مغاربة ممن استقروا في مدن السودان الغربي مثل مدينة ماسنة وكرجينيو وجني وكانو وتمكبت[٢٤]، إذ كان لهم تأثير بارز على الحياة الفكرية والدينية والثقافية بمجتمع بلاد السودان الغربي. فقد توارد على تلك البلاد عشرات من العلماء الذين درسوا بجامعة القرويين، ممن لمع اسمهم في تاريخ البلدين معا، وبارك الأسكيا الحركة العلمية والثقافية العربية وشجعوها، واحترموا العلماء والفقهاء والمتصوفة، و"اسقطوا عنهم وظائف السلطنة وغرامتها، ومنعوا عنهم ظلم الحكام بحيث كان للأسكيا محمد وغيره وحده حق النظر في أية شكوى ضد عالم أو فقيه أو صوفي".[٢٥] وحضي العلماء بالتوقير والاحترام لدرجة أن "اعتقد أهل السودان أن الولاية في العلماء ونسبوا لهم الكرامات وكانوا يقيمون الأضرحة لمن مات منهم ويتقدمون بالذبائح إلى تلك المقامات".[٢٦]

وانطلاقًا من المكانة التي حضي بها العلماء إلى جانب تضلعهم في مختلف العلوم والمعارف، إذ كانوا فقهاء وخطباء ووعاظ في مساجد بلاد السودان الغربي، فقد ازدهرت على أيديهم الحركة العلمية خصوصًا إبان العصر الحديث، وعُرف كل واحد منهم بمنهجه الخاص في التلقين، حتى صاروا قبلة عامة الناس وخاصتهم ينهلون من علومهم، وتقدم المتون التاريخية جملة من العلماء والمتصوفة المغاربة الذين قاموا بتعليم أهل السودان وتركوا لديهم آثارا بالغة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

عبد الرحمن سقين القصري المغربي:[٢٧] هو الحاج الرحالة الخطيب، أبو محمد عبد الرحمن بن علي بن احمد القصري الفاسي السفياني العاصمي توفي سنة (٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م)، تلميذ ابن غازي المؤرخ، رحل إلى بلاد السودان، ثم مصر والحجاز، عاد بعد خمس عشرة سنة

إلى بلاد السودان ودخل مدينة "كانو" حيث جلس مع حكامها وتولى القضاء فيها، عاد بعد ذلك غلى مدينة فاس سنة ١٥١٨، ثم رجع سنة ١٥١٩ إلى "كانو" حيث كان نشيطا في التعليم بها، وكان له دور كبير في تدريس وتعليم أصول الدين الإسلامي.

الشريف أبو العباس سيدي أحمد بن الشيخ الجليل أبي عبد الله: يذكر أنه من ذرية عبد القادر الجيلاني، "ووصف بالشرف والولاية من قبل الشيخ المجذوب أبو حفص عمر ولد عبد الله البرنوي، خرج من فاس متوجها لزيارة شيخه عبد الله البرنوي وأطال فيها"[٢٨]، وقد كان عالمًا معلمًا نهل من علمه مجموعة كبيرة من الطلاب ببلاد السودان الغربي أيام إقامته بتلك البقاع.

الفقيه سيدي علي بن عبد الله سر: [٢٩]هو الفقيه الإمام علي بن عبد الله سر بن الإمام سيدي يحيى بن علي الجزولي، من العلماء الذين برز اسمهم كان عالمًا ومفتيًا، عين إمامًا على الجامع الكبير بتنبكت بعد ووفاة الإمام عبد السلام بن محمد الفلاني سنة ١٦٢٥م بإذن من القاضي أحمد بن اندغ محمد وظل فيها إلى أن وافته المنية خلال القرن الحادي عشر هجري.

محمد بن عمر بن محمد اقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي: كان صنهاجيًا تنبكتيًا قاضيًا في هذه المدينة، يعتبر عالم بلاد التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها، انتفع به كثيرون وأحيا العلام ببلاده وكثر عليه طلاب الفقه، ونبغت جماعة من عائلة أقيت الصنهاجية فصاروا من العلماء المبرزين، وعن هذا العالم انتشر مختص الخليل ببلاد السودان الغربي، و"طال عمره حتى أنه درس مدة خمس عشرة سنة، ثم توفي في السادس عشر من رمضان سنة (٩٥٥هـ/١٥٤٨م)".[٣٠]

الشيخ أحمد بابا التنبكتي: يعتبر من أبرز علماء السودان ينحدر من أصول مغربية فعائلته، "عائلة أقيت الصنهاجية، أصحاب الدور الكبير في نشر العلم بالسودان الغربي في عهد سلطنة صنغاي، ترجم للعديد من العلماء في كتابه "كفاية المحتاج لمعرفة مَنْ ليس في الدباج" تولى القضاء في تنبكت في أواسط القرن التاسع الهجري[٣١]، ورغم الظروف الصعبة والأليمة التي حل فيها أحمد بابا بمراكش، فإن ذلك لم يكن ليثنيه عن البحث والاجتهاد في تحصيل العلوم، فخلال مقامه بمراكش، قصد خزاناتها، مثل "مكتبة جامع الشرفاء، ومكتبة السلطان أحمد المنصور، ومكتبة يوسف بن تاشفين"[٣٢]، وتمكن من النهل من مخطوطاتها وكتبها. ويمكن القول أن التجربة التي عاشها أحمد بابا، بالمغرب كانت "أخصب مراحل حياته الثقافية"،[٣٣] الأمر كان له انعكاس إيجابي عند عودته إلى تنبكت، إذ تفرغ للعلم ولمهنة التدريس وإعداد الفتاوى، وساهم بذلك في إغناء الحياة الثقافية والعلمية بالسودان الغربي، مما جعله يُعَدّ "من أبرز مثال للتواصل الثقافي والعلمي بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء.[٣٤]

إضافةً إلى هؤلاء العلماء برز أخرون ممَنْ أغنوا الحياة العلمية والفكرية، وتولوا مناصب سامية، كالقضاء والإمامة في المراكز الكبرى بالسودان الغربي، خصوصًا في فترة العصر الحديث خلال الحكم السعدي الذي عرف ازدهارًا علميًا وفكريًا، وقد بلغ تأثير العلماء المغاربة في الحياة الفكرية لدرجة أن المواد التي كانت تدرس بالمغرب هي نفسها كانت تدرس ببلاد السودان الغربي. كما تأثر المنهج التعليمي في السودان الغربي عموما بمنهج المغرب، حيث كان العرف الجاري في التعليم أن يبدأ التلميذ بالكُتاب فيتعلم القراءة فقط في أول الأمر، فإذا وصل إلى مرحلة يستطيع فيها أن يميز بين الحروف ويستطيع أن يقرأ باجتهاد، بدأ المعلم يعلمه الكتابة، وهذه هي مرحلة التعليم الأولي، وفيها يحفظ التلميذ القرآن كله أو نصفه، حسب قدرته وذكائه، ويتعلم كذلك بعض مبادئ الفقه.

ثم تأتي المرحلة العالية، وتكون الدراسة في هذه المرحلة في الجوامع والمدارس، وفي هذه المرحلة يتعلم الطالب النحو واللغة والفقه، وهذه المرحلة غير محددة الزمن إذ يرجع الأمر إلى الأستاذ هو الذي يجيز من الطلبة من رأى فيه النبوغ والتمكن. وفي هذا الإطار يُعَدّ أحمد بابا التنبكتي مثالاً واضحًا عن طريق الأخذ في هذه الرحلة في حديثه عن ملازمته لشيخه محمد بغيغ، فيقول: "لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل، وابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير ختمتها عليه، أما خليل فمرارًا عديدة نحو عشر مرات أو ثمان بقراءتي وقراءة غيري، وحضرت عليه التوضيح كذلك، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم،

وحضرته كثيرًا في المنتقى والمدونة بشرح المحلى ثلاث مرات، والفية العراقي في علم الحديث مع شرحها، وحضرتهما عليه مرة أخرى. وختمت عليه تلخيص المفتاح مرتين بمختصر السعد، وصغرى السنوسي ومع شرح زروق عليه، ونظم ابن مقرعة، والهاشمية في التنجيم مع شرحها ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغلي في المنطق والخزرجية في العروض بشرح الشريف والدماملي، وكثيرًا من تحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام مع شرح ولده عليه. وسمعت بقراءته هذه كثيرًا من البخاري، ودولاً من مدخل ابن الحاج بقراءة غيري، ودروسًا من الرسالة والألفية وغيرهما، وسمعت بلفظه جامع معيار الونشريسي كاملاً... وباحثته كثيرًا في المشكلات، وراجعته طويلاً في المهمات... وهو شيخي وأستاذي، ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه... وأجازني جميع ما يجوز له ومنه، وكتب لي بخطه في ذلك"[٣٥].

لقد كان للحركة العلمية التي أسس لها العلماء المغاربة ببلاد السودان أثر كبير على السودانيين، إذ شهدت هذه الأخيرة حركة واسعة من التأليف في مجالات عدة أبرزها الفقه والسير، على يد علماء سودانيين، ونذكر على سبيل المثال:

- "تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتقرير أنساب العبيد من الأحرار"، للمؤرخ الكبير محمود كعت، المولود سنة ١٥٤٨م في منطقة غورما غرب غاو، وقد عاصر المؤرخ أسكيا الحاج محمد الكبير في بدء شبابه، ثم انتقل إلى تنبكت لطلب العلم، توفي سنة ١٥٩٣م.[٣٦]
- "تاريخ السودان"، للشيخ عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، المولود سنة ١٥٩٦م تلقى العلم في تنبكت، واهتم بالتاريخ منذ شبابه، قال في كتابه: "ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه، وذهاب ديناره وفلوسه، وإنه كبير الفوائد، كثير الفرائد، لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم، فاستعنت بالله–سبحانه–في كتب ما رويت عن ذكر ملوك أهل سغي".[٣٧]
- "تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان" لمؤلف مجهول، كان يعيش في تنبكت، وبها تعلم العلم، كلفه الباشا أبو بكر بوضع كتاب في تاريخ السودان يكمل به عمل السعدي، وقد فرغ في تأليفه في سنة ١٧٥١م[٣٨].
- "نيل الابتهاج بتطريز ما في الدباج"، لأحمد بابا التنبكتي، وهو هامش على كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لبرهان الدين إبراهيم بن فرحون. وقد بدأ أحمد بابا تأليفه في تنبكت وأتمه في مراكش، ثم وضع له تكملة سماها (تكملة الديباج)، اشتملت على تراجم أئمة المذهب المالكي، ثم جعل لتلك التكملة ذيلا سماه (كفاية المحتاج لمعرفة مَنْ ليس في الديباج) أو (ذيل الابتهاج بالذيل على الديباج).[٣٩] كما تشير المصادر إلى أن هذا العالم الفقيه ذو الصيت، خلف ما يناهز الربعين مؤلفًا.

(١/٢) ٢-إسهام العلماء المتصوفة في نشر المذهب المالكي

كان لأصحاب المذاهب الإسلامية من السنة و الخوارج الصفرية والإباضية إسهام كبير وواضح في نشر الإسلام ببلاد السودان الغربي خلال القرن الثامن ميلادي، حيث نشطت التجارة التي ساهمت بدورها في نشر الإسلام وكذلك نشر بعض أراءهم الدينية، وقد ساعد على ذلك" حيوية التجار ودور السلطة السياسية في الشمال الإفريقي وبلاد السودان الغربي وتوفير الأمن على طول الطريق التجارية"؛ [٤٠] حيث استمر نشاط تجار الفرق الإسلامية الدعوي للإسلام خلال القرن التاسع، لكن مع نهاية هذا القرن انتهى دور الخوارج الصفرية في السودان الغربي بسقوط دولتهم في سجلماسة، وبدأ دور الإباضية في الضعف بعد سقوط دولتهم في تاهارت، وكان هذا سبب قيام الدولة الفاطمية الشيعية في المغربي، وقد سعت الدولة من أجل بسط نفوذها على العالم الإسلامي بشكل عام، لذلك كانت رغبة خلفائها في الاستفادة من تجارة الصحراء، ليتسنى لهم الحصول على كميات الذهب لتساعدهم في تمويل فتوحاتهم وضرب عملتهم، ولكن فشلت الدولة

الفاطمية الشيعية في ذلك كما فشلت في نشر مذهبها ببلاد المغرب وبلاد السودان الغربي.

ومع غياب تجار الفرق الإسلامية، شهد القرن الحادي عشر استمرار نشاط تجار السنة المالكي وفي هذه السنة قام المرابطين بدور دعوى في تلك البلاد ونشروا الإسلام على أساس المذهب المالكي، ولذلك تمكن "المذهب المالكي من الانتشار بشكل أوسع ولقي قبولاً أكثر من غيره من المذاهب، حتى أصبح مذهب الحكام والمحكومين، وتوطن بمفرده في بلاد السودان الغربي".[٤١]

يعتبر المغرب حصن المذهب المالكي الصامد، منذ أن تم تبنيه واستقر الأمر عليه، حتى صار مُصدراً لهذا المذهب وحاضنًا له إلى درجة أنه أصبح كما قال عبد الهادي التازي: "شعاراً من شعارات الدولة المغربية"[٤٢]. فمنذ الأدارسة استمر توطيد المذهب المالكي بالمغرب بعد أن انتقل إليه من الأندلس، فاعتمد المغاربة المذهب المالكي في حياتهم الدينية والدنيوية، بل جُعِل مذهبًا رسميًا للدولة، فحافظ عليه سلاطين الدولة المغربية وعملوا على نشره، إلى جانب الزوايا والطرق الصوفية التي كان لها الدور الكبير والهام في تصدير مبادئ وتعاليم الفقه المالكي، خصوصًا إلى بلاد السودان الغربي.

فلا غرو أن يكون من تجليات تأثيرات المغرب ببلاد السودان الغربي انتشار المذهب المالكي بهذه الأخيرة، خصوصًا. وقد استمر انتشاره بالمغرب إلى أن حمله أوائل المعلمين، علماء وفقهاء "سنيين مالكيين في جنوب الصحراء أمثال عبد الله بن ياسين وأبي بكر الحضرمي، وإبراهيم الأموي"[٤٣].

وبعد أن توطد الفكر والفقه المالكي لدى علماء وفقهاء الصحراء أصبحوا من المدافعين عنه والعاملين على نشره وهو الأمر الذي تم مع أول حملة للمرابطين في اتجاه بلاد السودان الغربي، الذي يُعَدّ من أهم المناطق التي ساد فيها المذهب المالكي حيث "أقبل السلاطين السودانيون على جلب الفقهاء المالكيين من أجل التفقه في المذهب"[٤٤] حتى غدى بلاد السودان الغربي في عهد مملكتي مالي وسنغاي من بين أهم مناطق العالم الإسلامي ازدهارًا بالعلوم الشرعية والثقافة الإسلامية المالكية. إن من بين أهم تأثيرات انتشار الإسلام في السودان الغربي هو "انتشار المذهب المالكي وبروز ظاهرة التصوف في لونه المغربي، وانتشاره على نطاق واسع".[٤٥]

ويمكننا القول أن انتشار المذهب المالكي تزامن مع انتشار الطرق الصوفية المغربية الأصل بتلك البقاع كالشاذلية، والقادرية والمختارية والتجانية غيرها من الطرق الصوفية التي اعتقد شيوخها في المذهب المالكي وعملوا على نشر تعاليمه، ولعل حديث البكري عن قبائل لمثونة يبين ذلك، حيث يقول: "وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين والأربعمائة هجرية بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم وهم على السنة ومتمسكون بمذهب مالك بن أنس رضي الله عنه".[٤٦]

لقد ساهمت الدولة المرابطية المؤطرة فكريًا بالمذهب المالكي من خلال رجالاتها، في تصحيح صورة الإسلام والمحافظة على ممارسة شعائره في بلاد السودان الغربي، بعدما كان انتشاره فيها بشكل غير منتظم وتشوبه العديد من الممارسات الخاطئة، رغم أن أهل غانة كانوا قد أسلموا في أول الفتح الإسلامي، وفي حديثه عن قبائل لمثونة يبرز لنا البكري التزامهم بالمذهب المالكي والجهاد من أجل توطيده ببلاد السودان الغربي إذ يقول: "وهم ظواعن رحالة في الصحراء ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام، وهم إلى السودان أقرب وهم على السنة مجاهدون للسودان"[٤٧]. أيضًا عمل فقهاء المالكية المغاربة على نشر مذهب الإمام مالك، فقد كانوا أسوة حسنة من خلال تمسكهم بأقوال مالك وتطبيقاتها على أنفسهم وخاصةً ما يتعلق منها بالبعد عن السلطان، ومن ثَمَّ عدهم العامة نماذج يحتذى بها، فأقبلوا على الأخذ بالمذهب حكامًا ومحكومين، بل وصل الانتماء لهذا المذهب مصدر فخر إذ نجد إن منسا موسى حاكم مالي يفتخر باعتناقه هذا المذهب وهو في القاهرة في حضر الملك السلطان ابن قلاوون، غذ امتنع عن تقبيل الأرض كتحية للملك وقال: "أنا مالكي المذهب ولا أسجد لغير الله"[٤٨]، وهكذا أقبل ملوك وأهالي تلك البلاد على هذا المذهب والتزموا بفقهه في كافة العبادات والمعاملات.

لقد تمكن علماء المغرب ومتصوفته من تحدي مناخ الصحراء رفقة التجار والقوافل التجارية والدعاة ووجدت دعوتهم القبول والرضى لدى أهالي السودان الغربي، إلى درجة إن سلاطين مملكة مالي وصنغاي تبنوا المذهب المالكي وجعلوه مذهبًا رسميًا كما هو الحال بالنسبة لسلطان مالي منسا موسى الذي ساهم في نشر الإسلام ببلاده، حيث "بنى المساجد والجوامع والمواذن وأقام بها (بلده) الجُمع والجماعات والأذان، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب مالك رضي الله عنه، وتفقه في الدين".(٤٩)

(١/٢) ٣-إسهام المتصوفة المغاربة في الوظائف الدينية

تعتبر الوظائف الدينية عصب إسهامات المتصوفة المرتبطة بالحياة العامة، وقد كان لهم الأثر الكبير في تغيير مجموعة من الممارسات السيئة والفاسدة التي انتشرت بتلك المجتمعات. من أهم الوظائف الدينية التي حضي علماء التصوف المغاربة والسودانيين بتوليها وظيفة القضاء، الخطابة، الإمامة، والإفتاء، ويُعَدّ منصب القضاء من أهم المناصب بحكم فصله بين الناس في المنازعات حسما للتداعي وقطعا للتنازع، حسب الشريعة الإسلامية، وهو حكم شرعي على سبيل الإلزام. ولا يرغب في هذا المنصب ويتصدى له إلا من كان نزيها، ورعا، معروف بالصلاح، إضافة إلى الصفات العلمية والمعرفية التي وجب أن يتحلوا بها أنداك من العلم بالكتاب والسنة، وما وقع عليه إجماع الأمة.

ومن المتصوفة الذين شغلوا منصب القضاء في ذلك العصر، المتصوف محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي، فسدد في الأمور وشدد في الحق، وهدد أهل الباطل، فاشتهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته، كما كان لا يخاف لومة لائم، هابه الخلق، فصار الجميع تحت أمره (٥٠). كذلك تولى هذا المنصب أيضًا المتصوف الفقيه القاضي محمد بن محمد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر كان عالما فقيها، كان أول القضاة الذين تولوا القضاء في عهد الحكم المغربي بالسودان الغربي في عهد الباشا محمود بن زرقون، ومكث في القضاء من عام (١٠٠٢ هـ- ١٠١٧ هـ/ ١٥٩٣ م — ١٦٠٨م) إلى أن توفي.(٥١)

أيضًا يذكر لنا السعدي، الفقيه محمود بن عمر بن أقيت الصنهاجي التنبكتي، هذا الفقيه الذي كان عالمًا متفقها في الدين عالي الشأن في الفقه المالكي، تولى القضاء في تنبكت حكم بالعدل، وأعطى لكل دي حق حقه، و محى الظلم و الفساد و أحيى العدل.(٥٢) أيضًا هناك أبو العباس أحمد ترور‌ي، الخير الصالح الدين الزاهد القاضي العدل تولى القضاء بمدينة جني.(٥٣)

ومن الوظائف الدينية التي تقلدها الصوفية المغاربة وتلامذتهم في ذلك العصر، وظيفة الإمامة والخطابة، رغم ما صار من جدل واسع بين علماء العصر حول تولي الصوفية لهذا المنصب، وهل يجوز الصلاة خلف إمام صوفي زاهد أم لا، وقد وجد العلماء مبتغاهم عند أستاذهم الونشريسي إذ يقول: "من حق الإمام أن يسلك ما سلك السلف، فيما يرجع إلى الدين و إقامة وظائفه ويتبرأ من كل مبتدع مضل"(٥٤)، لذلك تولى الكثير من علماء الصوفية إمامة مساجد السودان الغربي منهم: الشيخ الصالح الولي الناصح أبو زيد عبد الرحمن، يقول عنه السعدي:" لما برز الباشا جودار من مراكش عام (٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠م)، فلما صلى بالناس الظهر وجلس في مدرسته قال بالله بالله لتسمعن في هذا العام ما لم تسمعوا بمثله قط و لترون فيه ما لم تروا بمثله قط ... وورد —جوذر — السودان"(٥٥). أيضًا من الشيوخ الذين تولوا الإمامة، هناك الإمام سيدي علي بن عبد الله سيد بن الإمام سيدي علي الجزولي، تولى الإمامة بتنبكت بعد وفاة الإمام عبد السلام بن محمد دك الفلاني، مكث في الإمامة حوالي ستة عشر سنة، توفي سنة ١٦٤٢ م.(٥٦) كما تولى الإمامة عثمان بن الحسن التشتي إمامة الجامع الكبير بتنبكت(٥٧)، كذلك الإمام الفقيه محمود بن الإمام صديق بن محمد تعلي، تولى إمامة الجامع الكبير بتنبكت، يُعَدّ أول الأئمة في عهد الدولة السعدية، ولاه القاضي محمد بن أحمد بن القاضي عبد الرحمن إمامة الجامع الكبير ومكث بها إلى ان توفي عام ١٦٢٠م(٥٨).

ومن خلال هذه النماذج التي سوقناها، وغيرهم كثير نجد أن علماء الصوفية سواء المغاربة أو تلامذتهم من السودانيين تولوا منصب الإمامة للمسجد الكبير بتنبكت، وهذه الوظيفة التي تعتبر من الوظائف

الحساسة لما لها من اتصال مباشر بالناس، استطاعوا من خلالها النفاذ إلى قلوبهم ونشر التصوف في كل ربوع بلاد السودان من خلال الزهد والورع والعدالة التي تمتع بها العلماء المغاربة وتلامذتهم خلال توليهم تلك الوظائف والتي كان لها الدور الفعال في حياة المجتمع، سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي.

٢/٢-التصوف المغربي وأثره في الحياة الاجتماعية

مما لا شك فيه أن احتكاك المتصوفة بالناس ومشاركتهم حياتهم الاجتماعية، جعل مكانتهم تزيد في قلوب العامة، وتمثل دورهم الاجتماعي في أشياء كثير منها قضاء حوائج الناس لدى أولي الأمر، مستخدمين مكانتهم التي كانوا يتمتعون بها والحظوة التي حصلوا عليها لدى السلطة الحاكمة، ومن الأمثلة الكثير التي تزخر بها المصادر نذكر منها حسب ما أورده السعدي، "الصوفي أبو حفص عمر بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت، الذي عرف بتعهده لأقاربه وتفقدهم في صحتهم وعيادتهم في مرضهم. والزاهد محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي التنبكتي، الذي كان سخيًا جوادًا متوفى الحق ولذوي الباطل هدد فاشتهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته".[٥٩] كما ساهم هؤلاء المتصوفة بمالهم و تنافسوا في أعمال الخير، القيام بدور الصلح بين المتنازعين وكذا النصح لهم، وفي هذا يذكر السعدي، "أن أبى عبد الله القاضي تصدق بألف مثقال ذهب فرقت على المساكين الواقفين أما مسجد سنكري عندما اجتاحت تنبكت مجاعة"[٦٠].

واستمر متصوفة المغرب من قبيلة صنهاجة وغيرها في تقديم الخير للعامة، وأكبر مثال لذلك، الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن موسى عريان الرأس، الذي كان زاهدًا سخيًا، و"يأتيه النذور فلا يمسك منها شيء بل يتصدق بها للفقراء والمساكين واشترى كثير من المماليك واعتقهم لوجه الله تعالى والدار الآخرة".[٦١]

بناءً على ما سبق، فإن المتصوفة قدموا أدوارًا عظيمة الأهمية على المستوى الاجتماعي، مكنهم من ذلك من المحبة والاحترام والتقدير الذي اكتسبوه داخل مختلف الشرائح الاجتماعية، إضافةً إلى الهيبة التي صارت لهم لدى الناس على اختلاف درجاتهم ومواقعهم. ولم يقف تأثير العنصر المغربي عند ما هو علمي وفكري، بل تعداه إلى نشر التقاليد المغربية وثقافته، فقد أورد القلقشندي، في وصفه للتأثير المغربي على السودانيين قوله: "يرتدون عمائم بهنك، مثل المغرب وملبسهم شبيه بلبس المغاربة، جلباب ودراريع، بلا تفريج، وهم في ركوبهم كأنهم عرب".[٦٢]

ونافلة القول؛ إن المتصوفة بصفة عامة والمغاربة منهم بصفة خاصة كان لهم تأثير بالغ الأهمية في الحياة الدينية في بلاد السودان الغربي والسودانيين حيث أثروا كثيرًا في تنظيمات الزوايا والاعتكاف فيها والتزام الجوامع فضلاً عن التمسك ببساطة الحياة. كذلك ارتبطت أصول حركة ومدرسة الشيوخ السودانيين بحركة ومدرسة الشيوخ المغاربة فانتشرت العديد من مصادر التصوف المغربي عند المتصوفة السودانيين حتى أنه انتشر الكثير من الطرق الصوفية التي كانت معروفة في بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي، وساهمت هذه الطرق في توسيع دائرة انتشار الإسلام.

ومن هذا التأثير المغربي ما حظى به العلماء والفقهاء والمتصوفة والأولياء من احترام وقبول في المجتمع السوداني، كما أن التصوف السوداني على غرار التصوف الإسلامي والتصوف الأندلسي والتصوف المغربي انكب عل الاهتمام في فترة معينة بالسلوك أكثر من الفكر، وهي ظاهرة أثرت على حياة المريدين في السودان الغربي، فضلاً عن انتشار المذهب المالكي في بلاد السودان عبر المغرب حتى أقبل السلاطين السودانيين على جلب الفقهاء المالكيين إلى بلادهم والتفقه على أيديهم في المذهب، وأصبح بذلك السودان الغربي فيما بعد من أهم المناطق التي ساد فيها المذهب المالكي والتصوف المغربي السني. وبشكل عام فالتصوف المغربي له امتدادات جغرافية واجتماعية ثقافية، بل سلوكية على بلاد السودان الغربي حيث يستمد أصوله من الشريعة الإسلامية السمحة، مما يوحي أن التصوف كممارسة تعبدية أساسًا لا علاقة لها بالسياسة ولا بالأزمات الاجتماعية في بعدها السياسي.

خَاتِمَةٌ

إن المغرب ساهم بشكل كبير في انتشار الإسلام ببلاد السودان، ولم يكن وجود المجال الصحراوي المعروف بطبيعته القاسية حاجزًا بقدر ما كان فضاء طبيعيًا ساهم في هذا التلاقح بين ضفتيه. وقد كان لهجرة العائلات المغربية إلى تلك البقاع من أجل التجارة بداية، ثم تحول دورها إلى نشر الدين ومبادئ تعاليم الفقه المالكي أثر كبير في حياة مجتمعات السودان الغربي من سواء اجتماعيًا أو اقتصاديًا وفكريًا وعلميًا.

وما انتشار الطرق الصوفية ذات الأصل المغربي بتلك البقاع، دليل على مدى استجابة وترحيب السودانيين بالعنصر المغربي، هذا الأمر الذي استمر إلى يومنا هذا بعيدًا عن التغيرات السياسية، إذ أن الإسلام استطاع التوحيد بين شعوب إفريقيا الغربية والمغاربة. وظل المغرب محافظًا على الرسالة الدينية التي تحملها منذ المرابطين إلى العلويين، وذلك من خلال اهتمام السلاطين بالمسلمين الأفارقة وخصوصًا غرب إفريقيا، بالإضافة إلى العطف ورعاية الطرق الصوفية التي أصبحت تشكل آلية أساسية في التأثير ليس فقط على مستوى المجتمع، بل حتى على مستوى سياسات بعض الدول الخارجية. فأصبح المغرب اليوم واعيًا بأهمية الطرق الصوفية كآلية دبلوماسية دينية يمكن توظيفها من أجل تحقيق بعض المصالح الكبرى للدولة، ما جعل أمير المؤمنين الملك محمد السادس يعطي اهتمامًا كبيرًا لهذا الجانب من خلال رعاية المؤتمرات والمهرجانات التي تهتم بإشعاع التصوف المغربي السني.

الإحالات المرجعية:

(١) حسين مؤنس، **الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام**، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٥٩.

(٢) محمد الغربي، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي نشأته وآثاره**، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢، ص ٥٦.

(٣) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، منشورات هوداس، باريس، ١٩٨١ص ٢٤٣ - ٢٩٥.

(٤) العباس بن إبراهيم السملالي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، تحقيق بن منصور عبد الوهاب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣، ج٤، ص.١٢٧-١٣٦.

(٥) نفسه، ص ١٢٧.

(٦) محمد الأمين ولد سيد أحمد، **السلطة والفقهاء في إمارة الترارزة**، ط١، مطبعة المنارة، نواكشط، ٢٠٠٣، ص٧٥.

(٧) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٧، ص.١٢١-١٢٢.

(٨) المختار ولد حامد، **حياة موريتانيا الجغرافيا**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ١٩٩٠، ص ٩٤.

(٩) عبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ١٤٩٣-١٥٩١**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧١، ص ٢٣٥.

(١٠) الشريف ولد أحمد محمود، **الإسلام والمقومات والدولة في إفريقيا الغربية**، سلسلة ندوات ومحاضرات، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء، ٢٠٠٣، ص ١٨.

(١١) أحمد الأزمي، **"جوانب من انتشار تعاليم التصوف الشاذلي بإفريقيا جنوب الصحراء"**، مجلة دعوة الحق، العدد ٤١٥، ص.٤٦١.

(١٢) للتوسع حول الحموية يمكن الاطلاع على دراسة أحمد ولد نافع، **"التصوف المجاهد في غرب إفريقيا، الحموية نموذجًا"**، مجلة فضاءات، طرابلس، ليبيا، ٢٠١٠، ص ٤٥.

(١٣) عبد الودود سيسي، **بشرى المحبين**، منشورات الحركة التيجانية الغانية، مدينة كوماسي، ط ٢، غانا ٢٠٠٩، ص ٤٤٨.

(١٤) عثمان برايما باري، **جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي**، مطبعة دار الأمين، الطبعة ١، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٦٠.

(١٥) أحمد بلحاج، آية وارهام، **الطريقة التيجانية من التأسيس إلى الامتداد في إفريقيا وآسيا وأوروبا**، منشورات مؤسسة أفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش، ٢٠١٦، ص ٧٠-٧٤؛ أحمد الأزمي، " جوانب من...، مرجع سابق، ص.٢٣. أحمد ولد محمود، **الإسلام والمقومات**...، مرجع سابق، ص٢٤،٢٥.

(١٦) الحسين عماري، **"الزوايا كقناة للتواصل التجاري والثقافي والروحي بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر الحديث وبداية المعاصر"**، مجلة المناهل، عدد ٨٠،٨١، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، ٢٠٠٧، ص٢٨١.

(١٧) نفسه، ص ٢٨٢-٢٨٣.

(١٨) الخليل النحوي، مرجع سابق، ص١٢٣

(١٩) يوجد ضريح الشيخ عبد العزيز الدباغ بمقبرة باب الفتوح بمدينة فاس، وتنتسب إليه الطريقة المحمدية التي على رأسها الشيخ أحمد الدباغ

حفيد عبد العزيز الدباغ ويوجد مقر الطريقة المحمدية الدباغية بإنجلترا.

(٢٠) عبد الحي القادري، **الزاوية القادرية عبر التاريخ**، تطوان، ١٩٨٦، ص٤٩.

(21) Hassan Hami, **La Dimension Spirituelle des Relations Transnationales (le Maroc et L'Afrique Subsaharienne)**, Edition Bourgreg 2005, p. 181

(22) Ibid., p.190

(٢٣) محمد حجي، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٦، ج١، ص.٧١

(٢٤) نفسه، ص ٢٦٥ -٢٩٧.

(٢٥) محمود كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظام الأمور**، مطبعة بريدين، أنجة، ١٩١٣، ص ٧٢ – ٧٣.

(٢٦) محمد الغربي، **بداية الحكم المغربي** ...، مرجع سابق، ص ٥١٤.

(٢٧) محمد بنشريفة، **مساهمة المغاربة في تأسيس الحركة العلمية في شمال نيجريا خلال القرنين ١٥-١٦**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ١٩٩٣، ص ٦-٧.

(٢٨) نفسه، ص١٢١- ١٢٢.

(٢٩) عبد الرحمن السعدي، تاريخ...، مصدر سابق، ص ٢٩٨.

(٣٠) أحمد بابا التنبكتي، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، دراسة وتحقيق محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٠، ج٢، ص٢٤٥ -٢٤٦.

(٣١) نفسه، ص ٢١٨.

(٣٢) محمد بنشريفة، **"إفادة أحمد بابا التنبكتي من الخزانة المغربية"**، ضمن كتاب أحمد بابا التنبكتي، إيسيسكو، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٣، ص٨١-٨٢.

(٣٣) شوقي عطا الله الجمل، **"تفاعل أحمد بابا التنبكتي مع البيئة المراكشية الجديدة وآثارها على حياته العلمية"**، ضمن كتاب أحمد بابا التنبكتي، إيسيسكو، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٣، ص ١٢٦.

(٣٤) محمد، بنشريفة، "إفادة أحمد بابا ....، مرجع سابق، ص٧٩.

(٣٥) عبد الرحمن السعدي، تاريخ ...، مصدر سابق، ص ٤٦.

(٣٦) محمد الغربي، بداية الحكم ...، مرجع سابق، ص٥٣١.

(٣٧) عبد الرحمن السعدي، تاريخ...، مصدر سابق، ص٦.

(٣٨) محمد الغربي، بداية الحكم ...، مرجع سابق، ص٥٣٦.

(٣٩) نفسه، ص ٥٤٠ – ٥٤١.

(٤٠) الحبيب الجنحاني، **المغرب الإسلامي – الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٨، ص١٠٢- ١٤٦.

(٤١) نفسه، ص١٥٩.

(٤٢) عبد الهادي التازي، **"المذهب المالكي كشعار من شعارات الدولة المغربية"**، ضمن أعمال ندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة، المنعقد بفاس أيام ٢٥-٢٦-٢٧ أبريل ١٩٨٠، منشورات وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٨٢، ص٨٧.

(٤٣) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة** ....، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٤٤) أحمد العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق أبو ضيف أحمد مصطفى، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص٥٩ – ٦٠.

(٤٥) عفيفي أبو العلاء، **تصوف الثورة الروحية في الإسلام**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٧.

(٤٦) أبو عبيد البكري، **المسالك والممالك**، تحقيق فان ليوفن واندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٩٢، ج٢، ص٨٥٨- ٨٦٢.

(٤٧) نفسه، ص ٨٥٧.

(٤٨) تقي الدين المقريزي، **الذهب المسبوك في ذكر مَنْ حج من الخلفاء والملوك**، تحقيق جال الدين الشيال، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٤.

(٤٩) أحمد العمري، **مسالك الأبصار** ...، مرجع سابق، ص ٦٠-٦١.

(٥٠) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ** ...، مصدر سابق، ص ٣٨

(٥١) نفسه، ص ٢٤٢.

(٥٢) نفسه، ص ٢١٢.

(٥٣) نفسه، ص ٢٣٨.

(٥٤) الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٨٧، ج٧، ص ١١٧.

(٥٥) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ** ...، مصدر سابق، ص ٣٤

(٥٦) نفسه، ص ٢٤٣-٢٩٨

(٥٧) نفسه، ص ١٠٩

(٥٨) نفسه، ص ٣٠٩

(٥٩) نفسه، ص ٣١-٣٢ – ٣٣ – ٣٧-٣٨

(٦٠) نفسه، ص ٤٧

(٦١) نفسه، ص ٥٢

(٦٢) أبو العباس أحمد القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٥، ج٥، ص٢٨١